مكتبة البنين
قسم الدوريات

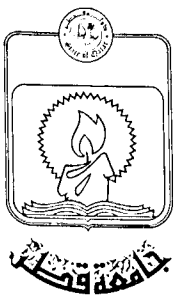

جامعة قطر

مجلة

مركز بحوث السنة والسيرة

غير مسموح بتداوله من المكتبة

العدد الرابع

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

غـزوة الخنـدق

والتنظيم الهندسي للدفاع عن المدينة

« شوال من السنة الخامسة للهجرة »

للواء الركن محمد جمال الدين محفوظ

عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

جمهورية مصر العربية

مجلة مركز بحوث السنة والسيرة

العدد الرابع ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م

في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة أجلى الرسول صلى الله عليه وسلم يهود بني النضير بسبب غدرهم به وبالمسلمين ونقضهم العهد الذي بينه وبينهم ، فانتقلوا إلى إخوانهم في خيبر ، لكن الحقد الذي ملأ قلوبهم ، جعل فكرة تأليب العرب عليه وعلى المسلمين تختمر في نفوسهم ، ومن أجل ذلك خرج نفر من اليهود بينهم سلام بن أبي الحقيق النضري ، وحيى بن أخطب النضري حتى قدموا مكة على قريش فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : (إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، فقالت لهم قريش : يامعشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفَدِينُنا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منهم) . وقد أنزل الله فيهم : ﴿ ألم ترا إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغون ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾ (النساء ٥١) فلما قالوا ذلك لقريش ، سرهم ما قالوا ونشطوا لما دعوهم له من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتذكروا أحقادهم ببدر ، فقال أبو سفيان : (مرحبا وأهلا ، أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد ، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له)[1] .

ولم يكف حيى بن أخطب واليهود الذين معه أن حرضوا قريشا على محاربة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل خرج أولئك اليهود إلى غطفان من قيس عيلان وبني مرة ، ومن بني فزارة ومن أشجع ومن بني سعد ومن أسد ومن تبعهم ، ومن كل من له عند المسلمين ثأر ، ومازالوا بهم يحرضونهم على الأخذ بثأرهم ويذكرون لهم متابعة قريش إياهم على حرب محمد صلى الله عليه وسلم ويحمدون لهم وثنيتهم ويعدونهم النصر لا محالة ، كما عرض اليهود عليهم تَمْرَ خيبر سنة إن هم نصروهم عليه ، وقد بلغت قوة المشركين حوالي عشرة آلاف (أربعة آلاف من قريش وستة آلاف من القبائل الأخرى)[2] .

استعداد المسلمين :

ولما تهيأت قريش للخروج أتى ركب من خُزَاعة في أربع ليال حتى أخبروا رسـول الله صلى الله عليه وسلم فنـدب عليه الصلاة والسلام الناس ودعاهم للخروج وأخبرهم خبر عدوهم وشاورهم في الأمر ، فأشار سلمان الفارسي بحفر خندق للدفاع عن المدينة ، ولم يكن حفر الخنادق للأغراض الدفاعية معروفا عند العرب من قبل ، قال سلمان : «يارسول الله ، إنا كنا بأرض فارس إذا تَخَوَّفْنا الخيل ، خندقنا علينا»[٣] .

وقـد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بما أشار سلمان وخرج في نفر من المهـاجرين والأنصار ، فارتاد موضعا ينزل له وجعل سَلْعا (جبل سلع) خلف ظهره فاختط فيه الخندق ، وقد جاءت في مغازي الواقدي : «وكان الخندق ما بين جبل بني عبيد بخربي ، إلى راتج ، فكان للمهاجرين من ذباب إلى راتج ، وكان للأنصار ما بين ذباب إلى خربي ، فهذا هو الذي حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسملون وشبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية ، وهي كالحصن ، وخندقت بنو عبد الأشهل على نفسها مما يلي راتج إلى خلفها حتى جاء الخندق من وراء المسجد ، وخندقت بنو دينار من عند خربي إلى موضع دار ابن أُبَيّ ، ورفع المسلمون النساء والصبيان إلى الآطام» (الحصون)[٤] .

ولقد حكمت تخطيط الخندق على هذا النحو عدة عوامل لها اعتبارها من الناحية العسكرية :

١ - فقد كانت طبيعة الأرض في المنطقة من أهم هذه العوامل ، إذ قضت أن يكون «بموانع طبيعية» في الجهات الثلاثة الأخرى :

فمن جهة الشرق : كانت حَرَّة واقم[٥] ، ومن جهة الغرب : كانت حرة وبرة ، ومن الجنوب : كان جبل سَلْع .

٢ - وبالاضافة إلى ذلك كانت آطام (حصون) بني قريظة في الجنوب الشرقي تكمل «نطاق الأمن» من جهة الجنوب إلا إذا غدر بنو قريظة بعهدهم الذي كان بينهم وبين المسلمين بألا يناصروا عليهم عدوا .

٣ - كما أن بقية المدينة قد تم تحصينها بسد الفرج بين البيوت حتى أصبحت كالحصن[٦] .

وقد بلغت قوة المسلمين ثلاثة آلاف رجل[٧] بينما بلغت قوة المشركين عشرة آلاف رجل ومعهم سبعمائة فرس[٨] .

سير المعركة :

لما اقتربت طلائع الأحزاب من المدينة من ناحية جبل أحد ظهر أمامهم الخندق معترضا طريقهم فكانت مفاجأة لم يكونوا يتوقعونها حتى قال بعضهم : (هذه مكيدة لم تكن العرب تكيدها)[٩] . . فلما رأوا ألا سبيل إلى اجتياز الخندق اتخذت قريش ومن تابعها مواقعها في مجتمع الأسيال[١٠] قبالة الخندق ، ونزلت غطفان ومن معهم إلى جانب أحد .

وقف الجيشان أياما يرقب كل منهما الآخر ، وكتائب الأحزاب لا تنفك تطوف بالخندق ليلا ونهارا علَّهم يجدون فيه منفذا ينفذون منه أو ينتهزون من المسلمين غِرَّة يتمكنون فيها من اجتيازه ، ولكن المسلمين لم يكونوا يغفلون لحظة ، وكلما رأوا طليعة من طلائع العدو تدنو من الخندق أمطروها وابلا من السهام والنبال فترتد على أعقابها وترجع من حيث أتت .

وصار المشركون يتناوبون فيغدو أبو سفيان في أصحابه يوما ، ويغدو خالد بن الوليد يوما ، ويغدو عمرو بن العاص يوما ، ويغدو جبيرة بن وهب يوما ، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يوما ، ويغدو ضرار بن الخطاب يوما ، فلا يزالون يجيلون خيلهم ويفترقون مرة ، ويجتمعون أخرى ، ويناوشون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي يقربون منهم ، ويقدمون رجالهم فيرمون ، ومكثوا على ذلك المدة المتقدمة ، ولم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل والحصى[١١] .

وجـرت محاولات لاقتحام الخندق من بعض فرسان المشركين لكنها باءت بالفشل كما سيأتي .

نقض يهود بني قريظة للعهد :

استـطاع حيى بن أخطب التأثير على يهود بني قريظة فنقضوا عهدهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال لزعيمهم كعب بن أسد القُرَظي : (جئتك بعز الدهر وببحرٍ طام (يريد كثرة الرجال) : جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنـزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنـزلتهم بذنب نَقْمى إلى أحـد ، قد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه» وأعطاه عهدا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمد أن يدخل معه في حصنه حتى يصيبه ما يصيبه)[١٢] .

وقـد خلق بنو قريظة بنقضهم العهد تهديدا خطيرا لظهر المسلمين الذين يواجهون عشرة آلاف من المشركين . هذا فضلا عن أنه كان من نتائج نقض العهد ما يلي .

١ - ارتفعت الروح المعنوية للمشركين . وبدأوا يكثفون جهودهم لاقتحام الخندق .

٢ - وانكشفت للمسلمين موقف المنافقين فتخاذلوا وأخذوا يثبطون العزائم ، حتى قال مُعَتِّب بن قُشَيْر : (كـان محمـد يَعِـدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحَدُنَا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط !) ، كما استأذن فريق منهم الرسول صلى الله عليه وسلم في أن يرجعوا إلى بيوتهم متعللين بأنها غير محصنة[١٣] .

وهكذا عظم البلاء واشتد الخوف ، وقد صور القرآن الكريم الموقف في إيجاز تصويرا بليغا فيقول الله تعالى : ﴿ إذا جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصـار وبلغت القلوب الحنـاجـر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزازلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما

وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ﴾ (الأحزاب ١٠-١٣) .

تفريق صفوف الأعداء :

والأمر الجدير بالدراسة والتدبر في هذه الغزوة هو الطريقة التي واجه بها الرسول صلى الله عليه وسلك ذلك الموقف المعقد والخطير ، والذي «ينشأ لأول مرة» في تاريخ الصراع إذ تجمعت ضده «كل القوى» التي يمكن أن تواجهه في شبه الجزيرة : قريش ، والقبائل العربية الأخرى واليهود ، كما واجه طعنة في الظهر ممن كان بينهم وبينه عهد ، أضف إلى ذلك تفوق المشركين في العدد والسلاح بنسبة ثلاثة إلى واحد على الأقل .

ولم تكن الوسيلة للخلاص من هذا الموقف إلا تفريق صفوف الأعداء وتفتيت وحدتهم ، فيكون في ذلك القضاء على المصدر الرئيسي لقوتهم ، ونذكر فيما يلي ما وقع من أعمال لتحقيق هذا الهدف :

١ - السعي إلى إخراج غطفان من المعركة :

أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصالح غطفان على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا عنه وعن أصحابه ، وتلك حيلة أراد صلى الله عليه وسلم بها تفريق جماعة الكافرين وإضعاف شأنهم والتفرغ لمن بقى منهم ، فبعث عليه الصلاة والسلام إلى سعد بن معاذ (وهو سيد الأوس) وسعد بن عبادة (وهو سيد الخزرج) فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه ، فقالا له : يارسول الله : أمراً تُحِبُّه فنصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لابد لنا من العمل به ؟ أم شيئا تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكَالَبُوكم (اشتدوا عليكم) من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما . . فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله قد كنا

نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثَمْرَةً إلا قِرىً أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟! . . والله ما لنا بهذا من حاجة ولا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت وذاك[١٤] .

٢ - إرهاب يهود بني قريظة :

وبعد أن تأكد الرسول صلى الله عليه وسلم من نقض يهود بني قريظة للعهد قرر إظهار القوة لهم لإرهابهم ومنعهم من القيام بما يضر المسلمين فبعث عليه الصلاة والسلام مفرزتين قويتين :

المفرزة الأولى تتألف من مائتي رجل بقيادة سَلَمة بن أسلم بن حُريش الأشهلي ، والثانية تتألف من ثلاثمائة رجل بقيادة زيد بن حارثة يحرسون المدينة ويُظهرون التكبير .

وقد كان للمرأة المسلمة في هذه الغزوة دور فيما يسمى بالمقاومة الشعبية لتأمين المدينة ، روى محمد ابن أسحاق عن عباد بن عبد الله بن الزبير ، ومحمد بن عمر عن شيوخه ، وأبو يَعْلي والبزار بسند حسن ، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه ، والطبراني برجال الصحيح ، عن عروة بن الزبير مرسلا ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الخندق فجعل نساءه وعَمَّته صفية في أُطْم (حصن) يقال له فارع ، وجعل معهم حسان بن ثابت ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق ، فأقبل عشرة من يهود ، فجعلوا ينقَمِعُون (يستترون) ويرمون الحصن ، ودنا أحدهم إلى باب الحصن وقد حاربت قريظة ، (وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، وليس بيننا (كلام لصفية) وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في نحر العدو ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إذْ أتانا أتٍ ، فقلت لحسان : ياحسان قم إليه فاقتله ، فقال : يغفر الله لك يابنت عبد المطلب ، والله لقد عَرَفتِ ما أنا بصاحب هذا ،

ولو كان ذلك فيَّ لخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت صفية : فلما قال ذلك ، ولم أر عنده شيئا احتجزتُ (شددت وسطي) ثم أخذت سيفا فربطته على ذراعي ، ثم تقدمت إليه حتى قتلته ، وفي لفظ : فأخذت عمودا ، ثم نزلت من الحصن فضربته بالعمود ضربة شَدَخْتُ فيها رأسه ، فلما فَرَغْتُ منه رجعت إلى الحصن ، فقلت : ياحسان ، أنزل إليه فاسْلُبْه ، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل ، قال : ما لي بسلبه من حاجة يابنت عبد المطلب . فقلتُ له : خذ الرأس وارم به على اليهود ، قال : ماذاك فيّ ، فأخذت هي الرأس فرمت به على اليهود ، فقالوا : قد علمنا أن محمد لم يترك له خُلُوفاً ليس معهم أحد ، فتفرقوا . زاد أبو يعلى : فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضرب لصفية بسهم كما يضرب للرجال[١٥] .

٣ - الوقيعة بين المتحالفين :

وحدث أن نُعَيْمَ بن مسعود أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يارسول الله ، إني قد أسلمتُ ، وإن قومي (غطفان) لم يعلموا بإسلامي ، فمُرني بما شئت ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت رجل واحد ، فخَذِّلْ عنا إن استطعت ، فإن الحرب خُدعة . فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ، وكان لهم نديما في الجاهلية ، فقال : يابني قريظة ، قد عرفتم ودِّي إياكم ، وخاصَّة ما بيني وبينكم ، قالوا : صدقت ، لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تَحَوَّلوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدُهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نُهزةً (فرصة) أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلَّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُناً (رهائن) من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم حتى تناجزوه ، فقالوا : لقد أشرت بالرأي .

ثم خرج حتى أتى قريشا : فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش : قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمدا ، وإنه قد بلغني أمر «قد رأيت عليَّ حقا أن أبلغكموه . نصحا لكم ، فاكتموا عني ، فقالوا : نفعل ، قال : تعلمَّوا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : إن قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لكَ من القبيلتين ، من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ، فأرسل إليهم : أن نعم . . فإن بعثت إليكم يهود يلتسمون منكم رُهُنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا .

ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال : يامعشر غطفان ، إنكم أصلي وعشيرتي ، وأحب الناس إلي ، ولا أراكم تتهموني ، قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم ، قال : فاكتموا عني ، قالوا : نفعل ، فما أمرك ؟ ، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم .

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، وكان من صُنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤس غطفان إلى بني قريظة عِكْرِمة بن أبي جهل ، في نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام ، قد هَلكِ الخف والحافر (يريد الإبل والخيل) فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ، ونَفرغ مما بيننا وبينه ، فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ، وقد كان أحدث فيه بعضُنا حدثا ، فأصابه ما لم يَخْفَ عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رُهُنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا ، فإنا نخشى إن ضَرَّسَتْكم (نالت منكم) الحرب ، واشتد عليكم القتال أن تَنْشمروا (تسرعوا) إلى بلادكم وتتركونا ، والرجال في بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك منه .

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنوقريظة ، قالت قريش وغطفان : والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحقّ ، فأرسِلوا بني قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا . وخذَّل الله بينهم[١٦] .

الصمود للحصار ورحيل الأحزاب :

وقد ظل المسلمون صامدين في مواقعهم منذ بداية المعركة قرابة شهر[١٧] وباءت محاولات الأعداء لاقتحام الخندق بالفشل ، وكان المشركون - منذ قدوومهم من مكة - يعانون من نقص المؤن وعلف الخيل والإبل ، فقريش سَرَّحت ركابها في عضَاة وادي العتيق ، ولم تجد لخيلها هناك شيئا إلا ما حملت من علفها من الذُّرة ، وسرحت غطفان أبلها إلى الغابة في أثْلها وطَرُفَائها[١٨] ، وكان الناس قد حصدوا زرعهم قبل ذلك بشهر ، وأدخلوا حصادهم وأتْبَانَهم ، وكادت خيل غطفان تهلك[١٩] ، وهكذا دب في نفوس المشركين الملل وضعفت إراداتهم القتالية ، وخذل الله بينهم وبعث عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد فجعلت تَكْفَأ قدورهم (تميلها وتقلبها) وتطرح أبنيتهم ، فقال أبو سفيان : (يامعشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام ، لقد هلك الكُراع (الخيل) والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قِدْر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل»[٢٠] ، وهكذا انسحبت قريش ، ولما سمعت غطفان بما فعلت قريش ، انشمروا راجعين ، إلى بلادهم ، قال ابن اسحاق : ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة والمسلمون ، ووضعوا السلاح[٢١] .

الدروس المستفادة ومبادىء العسكرية الاسلامية

أولا : السرية والأمن الوقائي :

كشفت غزوة الخندق عن مبادىء السرية والأمن الوقائي التي جعل الإسلام لها شأنا كبيرا في تأمين سلامة الأمة ومن ذلك ما يلي :-

١ - قوة الاستخبارات الإسلامية ويقظتها :

إن مفاجأة الأعداء بالخندق تدل على أمرين في غاية الأهمية :

الأمر الأول : أن المسلمين كانوا على علم مسبق بنوايا أعدائهم بالخروج من مكـة لمهاجمتهم وذلك بفضل قوة استخباراتهم ويقظتها ، ففي مكة كان هناك العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم يكتب إليه أخبار المشركين ، كما كانت هناك خزاعة قال الزُهري : «وكانت خزاعة عَيْبَةَ نُصْح رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمها ومشركها لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة»[٢٢] وقد ذكرنا كيف بعثت خزاعة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تخبره بعزم قريش على مهاجمة المدينة .

والأمـر الثـاني : عجـز استخبارات المشركين على المستوين الاستراتيجي والتكتيكي على حد سواء عن اكتشاف أمر الخندق قبل وصولهم إلى المدينة وذلك على الرغم من أن حفره استغرق فترة ليست بالقصيرة (حوالي أسبوعين) ، وهي مدة كانت كافية جدا لاستخباراتهم - لو كانت نشطة ويقظة - لكشفه والإعلام عنه ، كما تدل تلك الواقعة أيضا على نجاح الاستخبارات الوقائية للمسلمين وعلى مدى كتمانهم لسر خطتهم الحربية وحرمان العدو من الحصول على معلومات عنها .

وهـذا ما عبر عنـه خبـير الاستخبـارات والجاسوسية العالمي «لاديسلاس فارجوا» في قوله : عندما قرر المكيون (قريش) أن يتخلصوا من محمد صلى الله عليه وسلم نهائيا عبؤا ضده قوة تتكون من عشرة آلاف مقاتل ، ولم ينزعج النبي لأنه كان قد ترك في مكة عملاء أكفاء أبلغوه بخطط أعدائه ، أما خصومه فلم يكن لهم عملاء عنده ، ولذلك فعندما وصل المكيون إلى المدينة أذهلهم أن يجدوا خندقا وجدارا يحيطان بالمدينة ، تماما إحاطة السوار بالمعصم حَمَيا محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه من العدوان»[٢٣] .

٢ - قوة وعي الأمن لدى المسلمين :

إن من أهم ما ساعد على نجاح مهمة نعيم بن مسعود الغطفاني في التفريق بين المتحالفين أنه كتم إسلامه ، فلم يعرف قومه (غطفان) ولا بنو قريظة ولا قريش عن إسلامه شيئا ، كما كتم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم هذا الخبر أيضا وذلك تطبيق بارع لمبدأ السرية والأمن وكتمان الأسرار .

٣ - استخدام الرمز (الشفرة) :

لما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر نقض بني قريظة للعهد ، أراد أن يستوثق من الخبر فبعث سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عُبادة سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة ، وخَوَّات بن جُبير ، فقال : انطلقوا حتى تنظروا ، أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقا فالْحَنُوا لي لَحْناً[٢٤] أعرفه ، ولا تَفُتُّوا في أعضاد الناس ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم . . ثم أقبلوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فسلَّموا عليه ثم قالوا : عَضَلٌ والقارة ، أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع ، خُبيب وأصحابه ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، أبشروا يامعشر المسلمين[٢٥] .

وللرسول صلى الله عليه وسلم حكمة بالغة في استخدام هذا الاسلوب الذي يضمن به سرية المعلومات ، وهي وقاية المسلمين مما قد يؤثر في روحهم المعنوية ، يدل على ذلك قوله «ولا تفتوا في أعضاد الناس» .

٤ - ضرورة متابعة نتائج عمل الاستخبارات :

يقرر الرسول صلى الله عليه وسلم ضرورة متابعة نشاط الاستخبارات للتعرف على النتائج التي حققها ، وهو مبدأ مقرر في العلم العسكري الحديث ، فالرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن يتعرف على آثار دعوة نعيم بن مسعود الغطفاني التي استهدف بها الوقيعة بين المتحالفين ، فدعا حُذيفة بن اليمان فقال له : ياحذيفة ، أذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولا تُحْدِثَنَّ شيئا حتى تأتينا ، فذهب حذيفة ودخل معسكر قريش حتى سمع أبا سفيان وهو يدعو قومه بالرحيل وكان مما قاله ما يؤكد نجاح مهمة نعيم : «وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره» . . قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلي ، فلما رأني أدخلني إلى رجليه ، وطرح عليَّ طَرَفَ المِرْط (الكساء) ، ثم ركع وسجد وإني لفيه ، فلما سلَّم أخبرته الخبر[٢٦] .

٥ - شروط اختبار رجال الاستخبارات :

يقرر الرسول صلى الله عليه وسلم أن هناك خصائص وسمات لابد أن تتوافر في رجل الاستخبارات حتى ينجح في مهامه الدقيقة ، ومن هذه الخصائص حب الاستطلاع والكتمان الشديد وحضور البديهة والذكاء الخارق وعدم الارتباك في المواقف الحرجة أو المفاجئة وسرعة التخلص من المآزق ، من أجل ذلك كان اختياره صلوات الله وسلامه عليه لحذيفة بن اليمان ليدخل إلى صفوف الأعداء خلال المعركة ليأتيه بخبرهم فقد عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر في البداية على المسلمين وقال : «مَنْ رَجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ، أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة ؟ فما قام رجل من القوم من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد ، فلما لم يقم أحد ، دعا عليه الصلاة والسلام حذيفة وكلفه بالمهمة .

وقد أثبت حذيفة كفاءته الفائقة في العمل كرجل استخبارات في المهام الدقيقة يدل على ذلك أنه تعرض أثناء وجوده في صفوف قريش لموقف مفاجىء شديد الحرج لكنه تخلص منه بذكائه وسرعة تصرفه ذلك أنه سمع أبا سفيان يقول : يامعشر قريش : لينظر امرؤ مَنْ جليسه (أي ليتعرف كل رجل على من يجلس بجواره وذلك خشية أن يندس في صفوفهم أحد من معكسر المسلمين وفي وقت اشتداد الريح) ، قال حذيفة ، فأخذت بين الرجل الذي كان إلى جنبي ، فقلت : من أنت ؟ قال : فلان بن فلان ، وورد في شرح المواهب : فضربت بيدي على الذي عن يميني ، فأخذت بيده ، فقلت : من أنت ؟ قال : معاوية بن أبي سفيان ، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي ، فقلت : من أنت : قال : عمرو بن العاص .

بهذا التصرف الذكي السريع ، أبعد حذيفة التهمة عن نفسه ، إذ سارع وبادر جليسيه بالسؤال قبل أن يسألاه ، ولو لم يتصرف حذيفة بمثل تلك السرعة وأصابه الارتباك ، لانكشف أمره ، ولضاع على المسلمين الهدف الذي أرسلوه من أجله .

ثانيا : التنظيم الهندسي للخندق :

يستحق الخندق باعتباره خط الدفاع الرئيسي عن المدينة أن نحقق تنظيمه الهندسي من حيث اتساعه وعمقه وطوله والمدة التي استغرقها حفره ، وتقسيم العمل ونصيب الفرد الواحد في الحفر والأدوات التي استخدمت :

١ - اتساع الخندق :

لم نوفق في المصادر والمراجع لنص صريح موثق يحدد اتساع الخندق ، إلا أنه يمكن أن نصل إلى معرفة اتساعه على وجه يكون أقرب ما يمكن من الحقيقة بدراسة العوامل الآتية :

١ - لقد كان الغرض من حفر الخندق هو منع فرسان العدو من عبوره واقتحامه ، فلابد أن يكون اتساعه وعمقه بحيث لا تستطيع الخيل اقتحامه ، ويؤيد ذلك أيضا قول سلمان الفارسي وهو يشير بحفر الخندق : (إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل ، خندقنا علينا) ، وقد ذكرنا أن المشركين لديهم قوة من الخيل لا يستهان بها إذ بلغت سبعمائة فرس تقريبا .

٢ - الجواد العربي يستطيع تخطي الخنادق التي اتساعها ثمانية أمتار تقريبا وذلك طبقا لرأي الاتحاد المصري للفروسية الذي استطلعنا رأيه في هذا الشأن (انظر خطابه) على أننا نرى تخفيض هذا الرقم قليلا بالنظر إلى اختلاف ظروف وإمكانيات إعاشة الخيل وتدريبها على القفز الطويل والعناية بها بين ذلك الوقت والوقت الحاضر .

٣ - ورد في الموسوعة العسكرية[٢٧] أن عرض الخندق في غزوة الأحزاب كان حوالي ستة أمتار ، كما جاء في كتاب «الفن الحربي في صدر الإسلام» ما يلي : «وأظن أن قفزة الجواد الجيد تقارب الأمتار الستة»[٢٨] ، إلا أننا نقدر عرض الخندق ما بين ستة أمتار ونصف المتر والسبعة أمتار ودليلنا على ذلك ما يلي :

أدرك فرسان المشركين بعد استطلاعهم للخندق أن اتساعه يتجاوز

قدرة خيلهم على القفز الطويل ، فجعلوا يطوفون بالخندق بحثا عن مكان يضيق فيه ليعبروا منه ، وحتى عند محاولتهم العبور في المكان الضيق لم يكن الأمر سهلا ، بل إنهم اضطروا إلى استخدم القسوة مع خيلهم حتى تعبر ، روى البيهقي عن ابن اسحـــاق ، ومحمـد بن عمـر عن شيوخـه قال : «فجعلوا (أي المشركـين) يطوفون بالخندق يطلبون مضيقا ، يريدون أن يقحموا خيلهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فتيمموا مكانا من الخندق ضيقا قد أغفله المسلمون فجعلوا يُكرون خيلهم ويضربونها حتى اقتحمت»[٢٩] .

وبعض الذين حاولوا اقتحام الخندق فشلوا وسقطوا فيه ، فقد روي أبـو نُعيم أن رجلا من آل المغيرة قال : لأقتلن محمدا ، فأوْثب فرسه في الخندق ، فوقع فاندقت عنقه[٣٠] .

٤ - أما عرض الخندق عند القاع فيقدر بأربعة أمتار ونصف المتر تقريبا لضرورة ذلك هندسيا لضمان ثبات الرمال عند حافتي الخندق ، وعدم انهيارها إلى داخله .

٢ - عمق الخندق :

كان عمق الخندق حوالي ثلاثة أمتار (أي خمسة أذرع ومتوسط طول الذراع ستون سنتيمترا) فقد ذكر الحلبي وهو يصف قدرة سلمان الفارسي الخارقة عند حفر الخندق : «كان رجلا قويا يعمل عمل عشرة رجال في الخندق أي فكان يحفر في كل يوم خمسة أذرع في عمق خمسة أذرع»[٣١] . وهذا العمق مع الاتساع السابق ذكره يحقق الهدف المطلوب وهو منع الخيل من اقتحام الخندق .

٣ - نصيب الفرد الواحد في الحفر :

روى الطبراني بسند لا بأس به عن عمرو بن عوف المُزَني «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خط الخندق من أجَم الشيخين طرف بني حارثة حتى بلغ المذاد

فقطع لكل عشرة أربعين ذراعا»[٣٢] أي أن نصيب الفرد كان أربعة أذرع أي مترين ونصف تقريبا .

٤ - طول الخندق :

على أساس أن عدد المسلمين كان ثلاثة آلاف ، وأن نصيب الفرد الواحد أربعة أذرع فيكون طول الخندق أثني عشر ألف ذراع أي حوالي ستة كيلو مترات أو يزيد .

٥ - المدة التي استغرقها حفر الخندق :

وردت في مدة حفر الخندق روايات مختلفة تتراوح بين الستة أيام والشهر : قال محمد بن عمر ، وابن سعد : وعَمِل المسلمون في الخندق حتى أحكموه في ستة أيام[٣٣] ، وذكر الحلبي : «وكان صلى الله عليه وسلم يعقب فيها بين ثلاثة من نسائه عائشة وأم سَلَمة وزينب بنت جحش فتكون عائشة عنده أياما - ثم تكون أم سلمة عنده أياماً - ثم تكون زينب عنده أياما - أي فإنه مكث في عمل الخندق بضع عشرة ليلة ، وقيل أربعا وعشرين ليلة ، أي وقيل عشرين ليلة ، وقيل قريبا من شهر ، وقيل شهرا . قال بعضهم : وكونه قريبا من شهر هو أثبت الأقاويل . وقيل أثبت الأقاويل أنها خمسة عشر قريبا ، وبه جزم النووي رحمه الله في الروضة»[٣٤] . ونميل إلى أن تكون هذه المدة حوالي أسبوعين بالنظر إلى حجم العمل .

٦ - أدوات الحفر التي استخدمت :

استخدم المسلمون في حفر الخندق أدوات الحفر التالية :

١ - المَسَاحي : جمع مسحاة (بكر الميم وبالسين المهملتين) وهي المِجْرَفة من الحديد (الجاروف) - والسَّحوْ : الكشف والإزالة .

٢ - الكَرَازين : جمع كِرْزين وهو الفأس .

٣ - المَكاتل : جمع مِكْتَل وهو زنبيل يُعمل من الخوص لنقل الرمال والأحجار . وقد استعار المسلمون هذه الأدوات من بني قريظة[٣٥] .

٧ - تقسيم العمل :

وفضلا عن تحديد نصيب لكل فرد في الحفر وهو أربعة أذرع كما قدمنا فقد قسم الرسول صلى الله عليه وسلم الخندق بين المهاجرين والأنصار فكان المهاجرين يحفرون من ناحية راتج إلى ذُباب ، وكانت الأنصار يحفرون من ذباب إلى جبل أبي عبيدة بخربي كما قدمنا .

٨ - ساتر الوقاية والأحجار :

وقد جعل المسملون الردم والأحجار الناتجة من الحفر إلى جانب الخندق من ناحية المدينة وعلى مسافة مناسبة من حافته بين المتر والنصف والمترين وذلك لمنع تساقط الرمال داخل الخندق . وهذا الساتر له ضرورة حيوية في الدفاع إذ يحقق الأهداف التالية :

١ - تأمين حماية المقاتلين المسلمين من أنظار العدو وسهامه وحجارته مع تأمين ظروف أفضل لهم للرصد والرمي والحركة ، من أجل ذلك يمكن تقدير ارتفاع الساتر بثلاثة أذرع تقريبا أي حوالي مائة وثمانين سنتيمترا .

٢ - حماية حرية المناورة بالقوات خلف الساتر وخاصة تلك القوات المكلفة بالهجوم المعاكس .

٣ - تيسير عمليات الإخلاء (إخلاء الجرحى) وعمليات إمداد القوات بمطالبها الإدارية .

أما الحجارة فقد جعلت في أكوام متقاربة وراء الساتر على طول الخندق لكي يستخدمها المسلمون عند الحاجة في رمي المشركين الذين يحاولون اقتحام الخندق أو يسقطون فيه كما سيأتي .

ثالثا : القيادة والسيطرة :

إن مثل هذا العمل الهندسي الكبير يتطلب قيادة على درجة عالية من الكفاية في التخطيط والتنظيم والإشراف والمتابعة ، ولقد أحكم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم سيطرته على أعمال التنظيم الهندسي وحفر الخندق وقد تجلى ذلك فيما يلي :-

١ - تقسيم العمل بين المهاجرين والأنصار وتحديد نصيب الفرد كما قدمنا .

٢ - إشرافه صلى الله عليه وسلم المباشر على أعمال الحفر بل والمشاركة فيه .

٣ - عدم ذهاب أي فرد إلى أمر خاص (كقضاء الحاجة) إلا بعد الاستئذان منه صلى الله عليه وسلم ، قال ابن اسحاق : «وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لابد منها ، يذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويستأذنه في اللحوق بحاجته ، فيأذن له ، فإذا قضي حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله ، رغبة في الخير واحتسابا له»[٣٦] .

٤ - اتخاذه صلى الله عليه وسلم مركز قيادة في قبة (خيمة) صغيرة مستديرة ، قال الحلبي : «وضربت له صلى الله عليه وسلم قبة من إدم»[٣٧] .

٥ - استمرار العمل طوال النهار مع الراحة ليلا .

٦ - استعماله صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم على المدينة[٣٨] .

٧ - حل المشكلات وإزالة العقبات التي تعترض المسلمين أثناء الحفر ، قال ابن اسحاق : كان مما بلغني أن جابر بن عبد الله كان يحدث : أنه اشتدت عليهم في بعض الخندق كُدْيَة[٣٩] ، فشكوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا بإناء من ماء ، فتفل فيه ، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية فيقول من حضرها : فوالذي بعثه بالحق نبيا لانهالت (تفتت) حتى عادت كالكَثيب لا تَرُدُّ فأسا ولا مسحاة[٤٠] . كما روى ابن اسحاق أن سلمان الفارسي قال : ضربت في ناحية من الخندق ، فغَلُظت عليّ صخرة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب مني ، فلما رأني أضرب ورأى شدة المكان عليّ ، نزل فأخذ المِعْول

من يدي ، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول بَرْقَةٌ ، قال : ثم ضرب به ضربة أخرى ، فلمعت تحته برقة أخرى ، قال : ثم ضرب به الثالثة ، فلمعت تحته برقة أخرى . قال : قلت بأبي أنت وأمي يارسول الله ، ما هذا الذي رأيت ، لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال : أَوَقَدْ رأيت ذلك ياسلمان ؟ قال : قلت نعم ، قال : أمـا الأولى فإن الله فتـح عليَّ بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق[٤١] .

رابعا : حراسة الخندق وصد محاولات اقتحامه :

كان رسول الله صل الله عليه وسلم قُبالة عدوهم لا يستطيعون الزوال عن مكـانهم يعتقبـون خنـدقهم يحرسـونه[٤٢] أي يتناوبون حراسته ليل نهار لرصد حركات العدو وكشف محاولاته لاقتحام الخندق والقضاء عليها . روى محمد بن عمر عن أم سَلَمة رضي الله عنها قالت : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخندق ، وكنا في قُرٍّ شديد (أي برد) فإني لأنظر إليه ليلة قام فصلى ما شاء الله أن يصـلي في قُبَّته ، ثم خرج فنظر ساعة فأسمعه يقول : هذه خيل المشركين تُطيف بالخندق ، ثم نادى عَبَّادَ بنَ بشْر ، فقال عباد ، لبيك ، قال : أمعك أحـد ؟ قال : نعم ، أنـا في نفر من أصحابي حول قبتك ، قال : انطلق مع أصحـابـك فأطف بالخندق ، فهذه خيل المشركين تطيف بكم ، يطمعون أن يصيبـوا منكم غِرَّة ، اللهم فادفع عنا شرهم ، وانصرنا عليهم واغلبهم ، فلا يغلبهم أحد غيرك ، فخرج عباد في أصحابه فإذا هو بأبي سفيان بن حرب في خيل المشركـين يطوفـون بمضيق من الخنـدق ، وقد نَذِرَ بهم المسلمون (أي علموا وحـذروا) فرموهم بالحجارة والنَّبْل (السهام) حتى أذلقهم المسلمون بالرمي ، فانكشفوا منهزمين إلى منازلهم[٤٣] .

تحقيق الثغرة :

وكانت في الخندق ثُلْمَة (أي مضيق) لم يوضح المؤرخون طبيعتها أو سببها ،

بل إن بعضهم ذكر أن المسلمين أغفلوهم حين قال : «فتيمموا (أي المشركين) مكانا من الخندق ضيقا قد أغفله المسلمون» كما قدمنا ، ولا نتصور أن يكون المسلمون قد تركوها غفلة أو إهمالا وهم يقيمون خط الدفاع الرئيسي عن المدينة في مواجهة أكبر حشد من المشركين منذ بداية الصراع (عشرة آلاف مقاتل) ، وإنما نرجح أن يكون المسلمون تركوها لسبب طبوغرافي يتعلق بطبيعة الأرض في تلك المنطقة من الخندق وهو أن تلك الثغرة التي تؤدي إلى أرض سَبْخَة وهي أرض رخوة ذات نَزٍّ[٤٤] ومِلْح يستحيل معها حفر خندق بعرض وعمق ثابتين من ناحية ، كما أنه تصعب فوقها الحركة ، والمناورة من ناحية أخرى .

على أن الرسول صلى الله عليه وسلم أحسن استغلال تلك الخصائص الطبوغرافية لصالح المعركة الدفاعية بأن اتخذ منها فخاً إذا وقع فيه من يحاول اقتحام الخندق من تلك الثغرة أمكن للمسلمين القضاء عليه ، وهكذا جعل المسلمين من منطقة الثغرة «أرْضَ قَتْلٍ» كما يطلق عليه العسكريون ، وهذا ما حدث فعلا :

قال ابن اسحاق : «ثم أقبلوا تُعْنِقُ خيلهم (أي تسرع) حتى وقفوا على الخندق ، ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه ، فجالت بهم في السَّبخة بين الخندق وسلْع وخرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم» . ثم جرت مبارزة بين علي وبين عمرو بن عبد وُدّ قُتل فيها عمرو ، فخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة[٤٥] .

وبالنظر للأهمية التكتيكية لتلك الثغرة كما ذكرنا فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أحيانا يحرسها بنفسه كما كان ينبه المسلمين إلى خطرها ، فقد روى محمد بن عمر عن عائشة رضي الله عنها قالت : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يختلف إلى ثلمة في الخندق يحرسها . . وكان يقول : ما أخشى أن يؤتي الناس إلا منها»[٤٦] .

ثم إن المسلمين كانوا يعبرون من خلال تلك الثلمة لمطاردة الأعداء

الهاربين ، ومن ذلك أنه حين قتل عمرو بن عبد ود رجع من وصل الخندق من المشركين بخيلهم هاربين ، فتبعهم الزبير رضي الله عنه ، كما تبعهم كذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٤٧] .

خامسا : تجريد العدو من مصادر قوته وتفوقه :

وظهر في غزوة الخندق ما يؤكد أصالة النظرية الإسلامية في التغلب على العدو المتفوق والتي من بين عناصرها «تجريد العدو من مصادر قوته وتفوقه» ، فقد واجه المسلمون في الخندق «كل القوى» التي يمكن أن تتجمع وتتحالف لقتالهم في شبه الجزيرة ، ثم أضاف الغدر اليهودي إلى هذا التحالف قوة جديدة وضعت المسلمين في أشد المواقف العسكرية خطورة ، ولم تكن الوسيلة للتغلب على هذا التفوق مواجهة الأعداء بالقتال المباشر بطبيعة الحال .

وهكذا رأينا كيف واجه الرسول صلى الله عليه وسلم ضرباته المتلاحقة ضد هذا التحالف حتى فرق صفوفه وجرَّده من إرادته القتالية واضطره إلى التراجع ، وكان البادىء بالتراجع ، زعيم الأحزاب أبو سفيان الذي قال لقومه : (فارتحلوا إني مرتحل) فلما سمعت غطفان بما فعلت قريش انشمروا راجعين لبلادهم .

سادسا : خطر المنافقين على الجيش :

قال ابن كثير في سيرته : لقد جد المسلمين في العمل ودأبوا ، وكان الرجل منهم إذا انتابته النائبة من الحاجة ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنه حتى إذا قضى حاجته عاد إلى عمله في الخندق رغبة في الخير واحتسابا له ، لكن المنافقين والمثبطين للهمم تباطئوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلون يورون[٤٨] بالضعف عن العمل ، ويتسللون إلى أهليهم بغير إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبين الله عز وجل الفرق بين المؤمنين والمنافقين في قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا

استـأذنـوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفـر لهم الله إن الله غفور رحيم ﴾ (النور ٦٢) وقال تعالى في المنافقين : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ (النور ٦٣ ويتسللون لواذا : أي خفية) .

وقد ازداد موقف المنافقين وضوحا بعد ذلك سعيهم إلى التثبيط والتخذيل وتوهين العزائم ، وليس أشد على الجيش المحارب من أن يكون دعاة التخذيل والتثبيط وإشاعة روح الهزيمة من داخله ومن بين صفوفه ، فلقد غدر المنافقون كما غدر اليهود ونقضوا العهد الذي أخذه عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقاتلوا معـه ولا يتخلوا عنه ، ولقد صور القرآن الكريم مواقفهم هذه أبلغ تصوير في قوله تعالى :

﴿ وإذ يقـول المنـافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ، وإذ قالت طائفـة منهم ياأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ﴾ (الأحزاب ١٢-١٥) .

والحق أنه مما تتميز به استراتيجية الردع الإسلامية التي تقوم على إعداد القوة والمرابطة التي توقع الرهبة في قلوب الأعداء وتخيفهم من عاقبة عدوانهم أنها لا تقتصر على ردع العدو الخارجي الظاهر فقط ، بل تشمل أيضا ردع أعداء الأمة من القـوى المضـادة التي تعمل ضدها في الخفاء والتي قد يكون خطرها - إذا غفلت عنها الأمة أو لم تَتَصَدَّ لها - أفدح بكثير من خطر العدو الظاهر . وهذا هو ما يفهم بوضوح من نص الآية الكريمة : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن ربـاط الخيل ترهبـون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ (الأنفال ٦٠) .

فهذه الفئة التي تعمل في الخفاء هي المعبر عنها بقوله جل شأنه : ﴿ وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ ، وقد فسرها السابقون بالمنافقين الذين يلبسون ثوبا ظاهره الرحمة وباطنه العذاب ، إلا أنها تنطوى بلغة العصر عل كل القوى المضادة التي تحقد على الأمة وتنفث سمومها في الخفاء وتروج الشائعات ، وتثير الفتنة وتغرى بالسلبية والفساد وتثبيط العزائم وتقتل الإرادة والإيجابية . ومن هذه الفئة من يكون داخل البلاد الإسلامية وبين صفوف أبنائها ومنهم من يكون خارجها يدبر ويخطط ويتحرك بكل الأساليب العلمية للحرب النفسية وللغزو الفكري الهدام .

من أجل ذلك فقدا اشتملت استراتيجية الردع في الإسلام على تلك الفئة من الأعداء الأخفياء فأوجبت على الأمة الإسلامية إعداد كل وسائل القوة والمرابطة التي ترد عليه .

سابعا : الانضباط :

من أمثلة الانضباط في جيش الإسلام والدقة في تنفيذ الأوامر ما وقع من حذيفة بن اليمان وهو بين صفوف المشركين ليتعرف على أحوالهم تنفيذا لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم كما قدمنا ، فقد كانت لديه فرصة مواتية لقتل أبي سفيان لكنه أمتنع عن ذلك تنفيذا لأمر الرسول صلى الله عليهم وسلم له بألا يأتي بأى تصرف في أثناء أدائه لمهمته حتى يعود إلى معسكر المسلمين : « ولا تُحْدِثَنَّ شيئا حتى تأتينا » ، وقد قال حذيفة في ذلك : «ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليّ «أن لا تحدث شيئا حتى تأتيني» ، ثم شئت ، لقتلته بسهم» .

ثامنا : قوة الايمان في ميزان القوى :

لم تكن غزوة الأحزاب هذه معركة ميدان بقدر ما كانت معركة أعصاب وامتحان عزائم ، واختبار قلوب ، ومن أجل هذا أخفق فيها المنافقون ونجح المؤمنون ، فبمقدار ما أظهر المنافقون ومرضى القلوب من الجزع والشك ،

وضعف النفس ، أظهر المؤمنون من الجلد والصبر وقوة الاحتمال ما يدل على قوة إيمانهم وصدق يقينهم بالله ، وثقتهم بأن وراء الشدة فرجا قريبا ، وأن الله تعالى إنما أراد بهذه الشدة أن يبتليهم ويمتحن إيمانهم ، فلما نجحوا في الامتحان هذا النجاح الباهر ، مدَّ الله إليهم يد الرحمة ، واستنقذهم بنعمته من براثن أعدائهم .

فضلا عن الأعداء قد اجتمعوا في أضخم عمل عسكري في تاريخ الصراع بينهم وبين المسلمين ، فإن المسلمين تعرضوا لعوامل الضغط النفسي والتخويف والغدر والإرهاب ومن أعدائهم ، ولعوامل التخذيل من المنافقين ، وكل هذه العوامل امتحان لقوة الإيمان وللإرادة القتالية . انظر إلى قول سعد بن معاذ - حين استشار الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه الأتفاق مع غطفان - «والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم» !

وانظر إلى موقف علي بن أبي طالب حين تصدى لعمرو بن عبد وُدّ عند اقتحامه الخندق ، فقد نادى عمرو : من يبارز ؟ فبرز له علي فقال له : ياعمرو ، إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خَلَّتين إلا أخذتَها منه ، قال له : أجل ، قال له علي : فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله ، وإلى الإسلام ، قال : لا حاجة لي بذلك ، قال : فإني أدعوك إلى النِّزال ، فقال له : لِمَ يابن أخي ؟ فوالله ما أحبُّ أن أقتلك ، قال له علي : لكني والله أحب أن أقتلك ، فحَمِيَ عمرو (اشتد غضبه) عند ذلك ، فاقتحم عن فرسه ، فعقره وضرب وجهه ثم أقبل على عليّ ، فتنازلا وتجاولا ، فقتله علي رضي الله عنه ، وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة[٤٩] .

وانظر إلى قول سعد بن معاذ حينما أصابه سهم قطع منه الأكحل (وهو عرق في الذراع قالوا إن قطعه يؤدي إلى الموت) : «اللهم إن كنتَ أبقيتَ من حرب قريش شيئا فأبقني لها ، فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه ، اللهم وإن كنتَ قد وضعتَ الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ، ولا تُمِتْني حتى تُقرَّ عيني من بني قريظة»[٥٠] .

وانظر إلى الإرادة القتالية للفتيان وحرصهم على المشاركة في المعركة ، فقد سارعوا إلى تقديم أنفسهم ، عن ابن عمر رضي الله عنهما : «أن النبي صلى الله عليه وسلم عرضه يوم أُحد وهو ابن أربع عشرة فلم يُجزه ، وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة فأجازه» (رواه البخاري) ، وقال ابن هشام : «ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم (يوم أحد) أسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، والبراء بن عازب ، وعمرو بن حزم ، وأَسَيد بن ظهير ثم أجازهم يوم الخندق وهم أبناء خمس عشرة سنة»[٥١] .

تاسعا : معية الله للمجاهدين الصادقين :

لو أن الله تعالى عامل المؤمنين بما فعله المنافقون وبعض ضعاف الإيمان لوكلهم إلى أنفسهم وأسلمهم إلى عدوهم ، ولكن الله جلت حكمته ووسعت الناس رحمته ، لم يجعل للمنافقين شأنا في ميزان النصر ولم يذكرهم إلا ليفضح أمرهم ويجعلهم مثلا لمن بعدهم ، فالأكثرية المؤمنة المضحية هي مناط النصر وموضع الاعزاز والتكريم من الله تعالى . ومن أجلهم يعطى الخير كله ، ولكن بعد أن يمتحنهم فينجحوا ، ويبتليهم فيصبروا ، ويأمرهم فيطيعوا ، وينهاهم فيمتنعوا ، مستسلمين لأمر الله ، خاضعين لحكمه ودينه ، واقفين عند حدوده ومحارمه ، دائبين في عملهم متيقظين ، متوكلين - لا متواكلين - على ربهم . فإذا ما قرأت وصف الله للمؤمنين في هذه الغزوة ، ثم قرأت النتيجة أدركت أن هذه النتيجة «لم تأت عفوا» ، ولا لأنهم آمنوا فقط ، وإنما لما ذكرناه آنفا . قال تعالى في تصوير حال المؤمنين إزاء الموقف كله : ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ (الأحزاب : ١٠ ، ١١) ، وقال تعالى في وصف موقف المؤمنين أثناء المعركة : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا .

ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما ﴾ (الأحزاب ٢٢-٢٤) .

ولقد عمل الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه كل ما يستطاع من عمل وأفرغوا جهدهم في الدفاع عن رسالتهم ومدينتهم حتى لم يبق في طوق البشر مُدَّخَر ، وهنا تدخلت العناية الإلهية لتأخذ بأيدي أولئك المؤمنين الذين جاهدوا في الله حق جهاده ، فأخذ سير المعركة يتطور على نحو لا يدرك الناس كنهه ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر ﴾ .

قال تعالى : «يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ (الأحزاب ٩) . في ذلك الوقت العصيب أرسل الله على الأحزاب ريحا شديدا وهطل المطر غزيرا وقصف الرعد ولمع البرق ، واشتدت العاصفة فاقتلعت خيام الأحزاب وكفأت القدور ، وأدخلت الرعب في النفوس فخافوا أن يُبَيِّتَهم المسلمون في تلك الفرصة ، فعزموا على الرحيل بعد أن يئسوا من تحقيق ما جاءوا لأجله بسبب الخندق المانع ، والمدينة المحصنة من خارجها والمقاومة اليقظة في داخلها ، وبسبب يأسهم من بني قريظة الذين غدروا بهم وبسبب الخطة التي أحكم الرسول صلى الله عليه وسلم إعدادها ونفذها نعيم بن مسعود للتفريق بين الأحزاب .

إن المتأمل في هذه الآية الكريمة يلاحظ أن الله تعالى ذكر إرسال الريح وإنزال جنده لنصر المؤمنين عقب ذكره مجيء الأحزاب وتجمعهم حول المدينة ، مع أن إرسال الريح وإنزال جند الله إنما حدث بعد ما يزيد على عشرين يوما من مجيء الأحزاب ، وذلك برهان قوي على أن نصر الله تعالى محقق للمؤمنين وقريب منهم ، وأنه أراد بهذه الغزوة كشف خبيئات النفوس ووضع كل إنسان في موضعه المناسب له ، وصدق الله القائل : ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ (محمد ٥) .

الهوامـــش

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، القسم الثاني (جـ٣ ، ٤) ط الحلبي ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م القاهرة ص٢١٤ .

(٢) علي بن برهان الدين الحلبي : إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون الشهير بالسيرة الحلبية ط الحلبي ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م القاهرة جـ٢ ص٦٣٠ - ٦٣١ .

(٣) الحلبي : المرجع السابق ص ٦٣١ .

(٤) حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ص١٠٢ - خريطة ٤٦ .

(٥) الحرة : أرض فيها حجارة سود متشطية (أي صخور بركانية) .

(٦) الحلبي : السيرة الحلبية جـ٢ ص٦٣٦ .

(٧) محمـد بن يوسف الصالحي الشامي : سبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد - ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م - جـ٤ ص٥٢٤ .

(٨) الحلبي : السيرة الحلبية جـ٢ ص٦٣٠ (وقد ذكر الحلبي أن قريشا كانت قوتها ٤٠٠٠ ومعهم ثلثمائة فرس وقياسا على ذلك يمكن تقدير عدد الخيل في القبائل الأخرى التي بلغت ٦٠٠٠ رجل بأربعمائة فرس ليكون المجموع ٧٠٠) .

(٩) ابن هشام : السيرة النبوية القسم الثاني ص٢٢٤ .

(١٠) مجتمع الأسيال : مكان منخفض يجتمع فيه السيل .

(١١) الحلبي : السيرة الحلبية جـ٢ ص٦٣٦ - ٦٣٧ .

(١٢) ابن هشام : السيرة النبوية القسم الثاني ص ٢٢١ .

(١٣) نفسه : ص٢٢٢ .

(١٤) نفسه : ص٢٢٣ (ومعنى قِرىً : ما يصنع للضيف من الطعام) .

(١٥) سبل الهدى والرشاد : جـ٤ ص٥٢٤ - ٥٢٥ ، وفيما يتعلق بموقف حسان بن ثابت فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعرف فيه أن قلبه لا يقوى على الحرب لكنه كان شاعرا بليغا ، فتركه في المدينة واستفاد من شعره البليغ في مجال الحرب النفسية وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال له : « ياحسان اهج المشركين وجبريل معك ، إذا حارب أصحابي بالسلاح فحارب أنت باللسان » (كنز العمل : ٢/١١٨) .

(١٦) ابن هشام السيرة النبوية القسم الثاني ص٢٢٩ - ٢٣١ .

(١٧) نفسه : ص ٢٢٣ .

(١٨) الأثْـل : شجـر من الفصيلة الطرفاوية طويل مستقيم يُعَمَّر ، جيد الخشب ، كثير الأغصان مُتَعَقِّدهُا ، دقيق الورق - والطَّرْفاء : جنس من النبات منه أشجار وجنبات

من الفصيلة الطرفاوية ومنه الأثل (المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية) .

(١٩) سبل الهدى والرشاد : جـ٤ ص٥٢٦ .

(٢٠) ابن هشام : السيرة النبوية القسم الثاني ص ٢٣٢ .

(٢١) نفسه ص ٢٣٣ . وكان دخول الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة يوم الأربعاء ، يوم منصرفه من الخندق لسبع بقين من ذي القعدة (راجع شرح المواهب) .

(٢٢) نفسه ص٣١٢ وعيبة نصح الرسول : أي خاصته وأصحاب سرِّه ، وقد كان بين عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم وخزاعة حلف قديم ، قال عمرو بن سالم بن حُصيرة الخزاعي :

لا همَّ أني ناشدا محمدا حِلفَ أبينا وأبيه الأتلدا

(راجع البلاذري : فتوح البلدان ص٤٥ في فتح مكة المكرمة) .

(٢٣) أحمد هاني : الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٣٨ .

(٢٤) اللحن : اللغز ، وهو أنه يخالف ظاهر الكلام معناه ، والمراد أن يقولوا قولا يفهمه الرسول صلى الله عليه وسلم ويخفى على غيره .

(٢٥) ابن هشام : السيرة النبوية ، القسم الثاني ص٢٢١ - ٢٢٢ .

(٢٦) نفسه : ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(١٧) الموسوعة العسكرية : ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٧ بيروت جـ٢ ص١٨٢ .

(٢٨) عبد الرؤوف عون : الفن الحربي في صدر الإسلام ط دار المعارف بمصر ١٩٦١ ص١٩١ .

(٢٩) سبل الهدى والرشاد : جـ٤ ص٥٣٢ .

(٣٠) نفسه ص٥٣٦ .

(٣١) السيرة الحلبية جـ١ ص٦٣٤ + سبل الهدى والرشاد جـ٤ ص٥١٥ .

(٣٢) سبل الهدى والرشاد جـ٤ ص٥١٥ .

(٣٣) نفسه ص ٥١٨ .

(٣٤ السيرة الحلبية : جـ٢ ص٦٣٥ - ٦٣٦ .

(٣٥) نفسه ص٦٣٥ .

(٣٦) ابن هشام : السيرة النبوية القسم الثاني ص٢١٦ .

(٣٧) السيرة الحلبية : جـ٢ ص٦٣٥ .

(٣٨) ابن هشام : السيرة النبوية القسم الثاني ص ٢٢٠ .

(٣٩) الكدية : الأرض الغليظة أو الصلبة لا تعمل فيها الفأس .

(٤٠) ابن هشام : المرجع السابق ص٢١٨ .

(٤١) نفسه : ص ٢١٩ .

(٤٢) سبل الهدى والرشاد : ص٥٢٨ - ٥٢٩ .

(٤٣) نفسه : ص٥٢٩ .

(٤٤) النَّزُّ والنِّزُّ : ما يتحلب من الأرض من الماء .

(٤٥) ابن هشام : المرجع السابق ص٢٢٤-٢٢٥ + سبل الهدى والرشاد جـ٤ ص٥٣٢ .

(٤٦) سبل الهدى والرشاد : ص٥٢٩ + السيرة الحلبية جـ٢ ص٦٤٨ .

(٤٧) السيرة الحلبية : جـ٢ ص٦٤٣ - ٦٤٤ .

(٤٨) يورق : أي يخفون مقصودهم من خذلان المسلمين بإظهار الضعف .

(٤٩) ابن هشام : المرجع السابق ص٢٢٥ .

(٥٠) نفسه : ص٢٢٧ .

(٥١) نفسه : ص٦٦ .

R.A.E.
FEDERATION EQUESTRE EGYPTIENNE
13, RUE KASR EL NIL - LE CAIRE
Tel. 753296
Telelx 93000 UN - OLY

F.E.E.

الاتحاد المصري للفروسية
١٣ شارع قصر النيل - القاهرة
ت : ٧٥٢٢٩٦
تلكس ٩٢٠٠٠ UN - OLY

Le Caire / / 19

القاهرة فى ٢ / ١٠ / ١٩٨٨

السيد اللواء أ ٠ ح جمال محفوظ

تحية طيبة وبعد ،

ايماءً الى خطاب سيادتكم المؤرخ أول سبتمبر ١٩٨٨ بطلب معلومات فنية عن مقدرة الجواد العربى ٠

نتشرف بافادة سيادتكم بالآتى

أولا ٠ يستطيع الجواد العربى تخطى الخنادق باتساع حوالى ٨ متر ٠

ثانيا ٠ من ناحية قدرة الجواد العربى على السير على مدى يوم كامل ٠ يستطيع قطع مسافة حوالى ٥٠ كيلومتر فى اليوم ٠ كما يمتاز الجواد العربى بقوة التحمل والسير لمسافات طويلة ٠ على أن يكون معدا إعدادا جيدا من ناحية التدريب وكذا من الناحية الصحية والبدنية ٠

وجدير بالذكر أن الجواد العربى أكفأ خيول العالم من قوة التحمل والسير على جميع أنواع الأراضى وخصوصا فى عبور الصحارى ٠

وتفضلوا بقبول وافر الاحترام ٠٠

لواء /

(حسين خيرى)

وكيل الاتحاد المصرى للفروسية

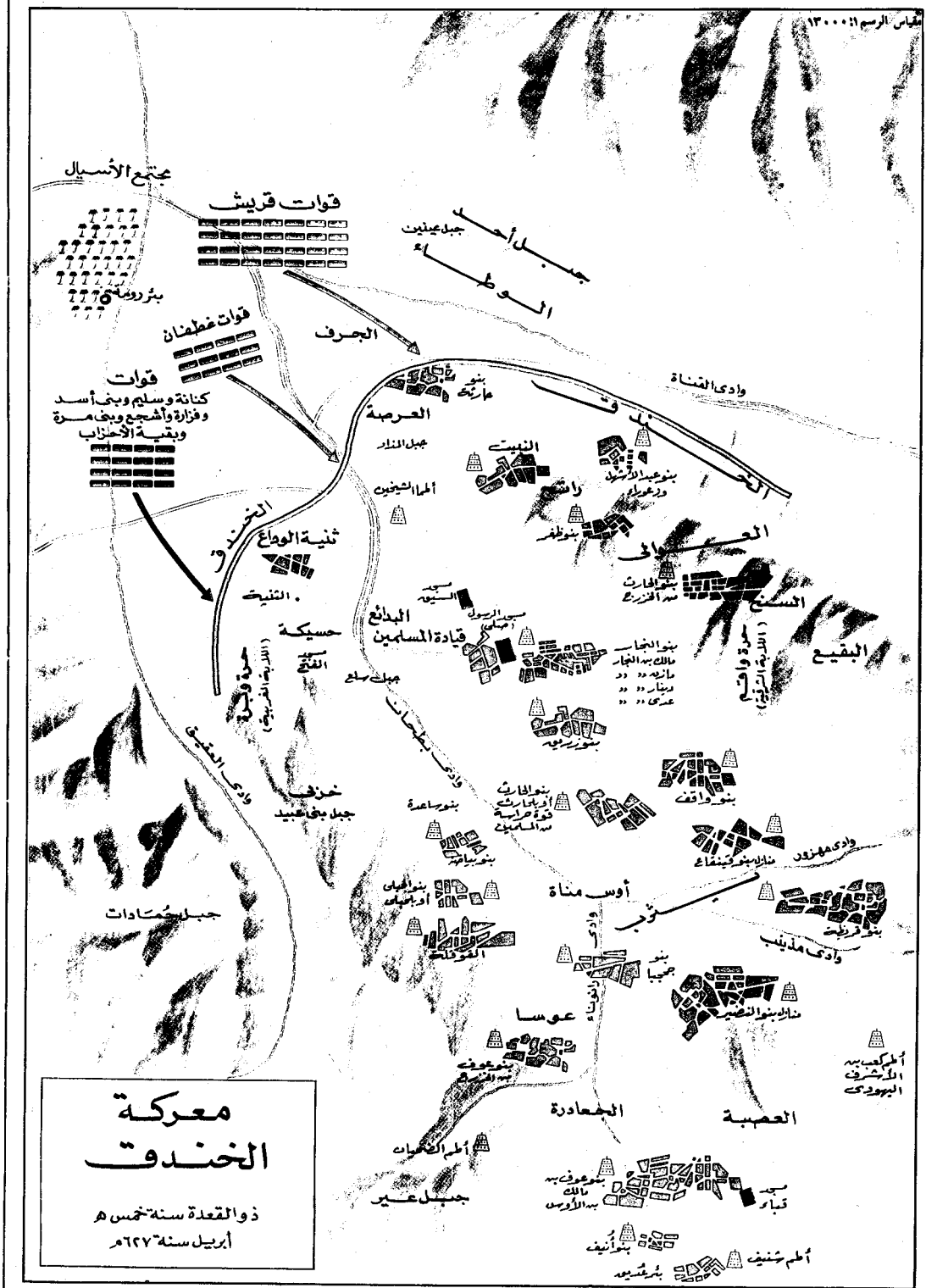

(عن مزين : أطلس تاريخ الإسلام خريطة رقم ٤٦ ص ٦٩)